منهاج القرآن فى التربية

د/ محمد أمين أبو بكر معوض

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا قيما لينذر بأسا شديداً من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا ماكثين فيه أبداً .

وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا »(١) .

ونشهد أن لا إله إلا الله الواحد القهار الحكم العدل الخالق لكل شيء ، العالم بكل شيء . نستغفره ونتوب إليه . ونستهديه ونسأله التوفيق والرشاد وبه تعالى نستعين ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ونصلى ونسلم على سيد ولد آدم أجمعين ، محمد بن عبد الله رسول الله وخاتم النبيين ونذيره وبشيره إلى الإنس والجن فى العالمين ، ونشهد أنه عبد الله ورسوله بلغ الرسالة وأدى الأمانة وما نطق فى شيء من الدين إلا بالحق بوحى من الله عز وجل « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى »(٢) .

ما ترك شريعة تلزمنا وفيها رضاء الله عنا : إلا فصلها ووضحها وبينها ، وما ترك خيراً قط يقربنا من الله عز وجل إلا نصحنا به ، وما كان من شر يستجلب غضب الله علينا إلا حذرنا منه ونهانا عنه ، وتركنا بعد ذلك وفينا كتاب الله وسنته عليه الصلاة والسلام على المحجة البيضاء ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك .

---

(١) الآيات ١ — ٥ سورة الكهف (٢) الآيتان ٣ : ٤ سورة النجم

اللهم صل وسلم عليه أعظم صلاة وأتم سلام وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد :

فمن فضل الله على الإنسان أنه لم يتركه فى الحياة يستهدى بما أودعه الله فيه من فطرة سليمة تقوده إلى الخير وترشده إلى البر فحسب بل يبعث إليه بين فترة وأخرى رسولا يحمل من الله كتابا يدعوه إلى عبادة الله وحده، ويبشر وينذر لتقوم عليه الحجة «رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما»(١) .

وظلت الإنسانية فى تطورها ورقيها الفكرى ، والوحى يعاودها بما يناسبها ويحل مشاكلها الوقتية فى نطاق قوم كل رسول حتى اكتمل نضجها، وأراد الله لرسالة سيدنا محمد ﷺ أن تشرق على الوجود ، فبعثه الله على حين فترة من الرسل ليكمل صرح إخوانه الرسل السابقين بشريعته العامة الخالدة وكتابه المنزل عليه وهو القرآن الكريم .

والقرآن الكريم وإن نزل بين العرب وبلغة العرب ، هو دعوة موجهة للإنسانية عامة لا فرق بين عرب وعجم ، وأمة وأمة ، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة :

قال تعالى «وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون»(٢) وقال سبحانه «وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»(٣) وقال سبحانه : «يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً»(٤) .

(١) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٢) الآية ٢٨ من سورة سبأ .
(٣) الآية ١٠٧ من سورة الأنبياء .
(٤) الآية ١٨٥ من سورة الأعراف .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب . وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض طهورا ومسجدا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون ، رواه مسلم فى صحيحه .

فلا غرو أن يأتى القرآن وافيا بجميع مطالب الحياة الانسانية .

وإذا أردنا أن نعرف أثر القرآن فى نفوس العالم ومنهجه فى التربية لا بد لنا أن نلم المامة موجزة بحال العالم عامة والعرب خاصة قبل بعثة النبى ﷺ كى يظهر لنا كيف كانت البشرية فى مسيس الحاجة إلى التخلص مما هى فيه من أوضار الشرك وأصفاد العبودية وجبروت الحكام وترهات الأحبار والرهبان .

فالعالم كله كان فى حالة انحلال تام ، الناس يعيشون فى غمرة الجهل ، إرادتهم مسلوبة وحياتهم مفقودة ، وعقولهم عن التفكير محجوبة ، والمظالم عامة ، والرذائل شامله ، والفوضى دستور الحياة ، وآفة الشرك قد أفسدت القلوب حتى أكلت بذور الإيمان .

والبلاد العربية يلفها الظلام ، ويعمها سوء الحال ، أهلها قبائل متنافره لا تجمعهم جامعة ، ولا تربطهم رابطة ، الحروب بينهم مشبوبة لأتفه الأسباب ، والصلات بينهم مقطوعة ، يعبدون الأوثان تقليدا للآباء «بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون»(١) .

ولقد صور جعفر بن أبى طالب حال الأمة العربية حينما هاجر إلى الحبشة للنجاشى فقال :

«كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ،

(١) الآية ٣٢ من سورة الزخرف .

وتقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والربا. ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتامى وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاه والزكاه والصيام فصدقناه وآمنا به، فعدا علينا قومنا ففتنونا عن ديننا ليردونا إلى عباده الأوثان من عباده الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورغبنا فى جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك»(١).

ولئن كان فى الجزيره العربية يهود فى الشمال، ونصارى فى الجنوب، وحنفاء فى الوسط، لكنهم جميعاً كانوا شيعاً وأحزابا، فسرى الفساد فيهم، وطغت المادية على اليهود ففقدت روحانيتها، وأضحت النصرانية شرسة ضاربة ففقدت سماحتها ورقتها.

وأسلم هؤلاء وأولئك أمرهم للأحبار والرهبان فأحلوا لهم وحرموا «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون»(٢).

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ص ٧٣، ٧٤ وأنظر حياه ورسالته لمولانا محمد على ترجمة منير البعلبكى ص ٨٩ وهذه القصة وإن تغلب على الظن أنها موضوعة بدليل أن الصيام ورد فيها وهو لم يشرع إلا بعد الهجره إلى الحبشة وبغير ذلك من الأدلة، فهى تمثل النزاع بين العقليتين أصدق تمثيل.

(٢) الآية ٢١ من سورة التوبة.

وطغت البدع فيهم حتى صاروا إلى وثنية تجافى الفطرة ولا تلائم عقلية الوحى الإلهى.

أما الحنفاء المتعبدون — من أمثال قس بن ساعدة الأيادى، وورقة بن نوفل، وأمية ابن أبى الصلت، وزيد بن عمرو بن نفيل — فهم لندرتهم كان صوتهم ضعيفا ولا يقوى على مقاومة الشرك ولم يكن لهم إتجاه إلى ما يتحمل فى نفوسهم وكان قصارى أمرهم أن يبتعدوا عن سفاهات قومهم وينعموا بالتفكير الهادىء، والتعبد حسبما يهديهم إليه الوجدان أو البرهان، وقد عجز هؤلاء جميعاً عن تعبير شيء من واقع العرب وإن كان ذلك قد هيأ بعض العقول وفتح بعض القلوب لتلقى الدعوه المحمدية بالقبول.

فكان هناك إحساس عام بالحاجة إلى تغيير هذه الأوضاع والتخلص من هذه المخازى.

فإذا ما أردنا النظر إلى جيران العرب رأينا أنه كان يجاورهم فى القرن السادس والسابع الميلادى دولتان عظيمتان هما الفرس والروم وكانتا فى حروب متلاحقة لا تهدأ لها نار، ولا تخمد لها أوار، والعداء قديم والشر مستحكم، وقد قضت هذه الحروب الطويلة، على كثير من القيم الانسانية، وفشا الفساد واضطربت الأفكار والعقائد، وغشيت العالم سحابة كثيفة من الجهل والفجور، وجحد الإنسان نعمة ربه عليه بل جحد ربوبيته والتبس الأمر على عامة الناس فظهر الحسن فى مظهر القبيح، والقبيح فى مظهر الحسن وأحل القوم لأنفسهم وحرموا افتراء على الله وانطمست معالم طرق الخير.

وكان أهل الكتاب فى ذلك الزمان قد نسوا حظاما ذكروا به، وغرتهم الحياه الدنيا، فاشتروا به ثمنا قليلا، واستبدوا بالناس، وسيطروا على عقولهم بالباطل. وكان غير أهل الكتاب بين كافر بخالقه مشرك فى عبادته، فوقع الناس بسبب ذلك فى أسر الذل والعبودية فتهدمت دعائم الحياه

الاجتماعية . وتقوض صرح العمران ، فكان من رحمة الله بالبشرية — وهذا حالها — أن يرسل فى الناس رسولا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، فأرسل سيدنا محمد ﷺ مبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا .

وقد أوجز القرآن تلك الحالة فى قوله تعالى : « تالله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم لتبين لهم الذى اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(١) .

نعم فى ذلك العصر الذى عجزت فيه الشرائع السماوية السابقة — بعد أن مزقتها يد التحريف والتغيير حتى صارت كالثوب المهلهل الخلق — عن أن تكون مصدر الهدى والنور ، وخبا شعاعها ، وأظلم ضوءها فلم يك ينفع المؤمن إيمانه ، ولم يهتد إلى سواء السبيل من أراد الاهتداء بها ، كان لابد للقرآن من أن يقول الكلمة الفاصلة فيما كانوا فيه يختلفون ، وأن يبين الحق فيما عليه الناس من اعتقادات ، وأن يحاول المخالفين لما أراد أن يقرر من اعتقادات جديدة ، وأن ينقذ الناس مما وقعوا فيه ، وأن يبدل هذه الحالات السيئة بأخرى صالحة عن طريق بث نور الحق وقواعد الإيمان الصحيح فى نفوس الناس وتعليمهم أصول دينهم وأصول الحكمة وما شرع لهم من الدين تكميلا لفطرتهم وضمانا لسعادتهم العاجلة والآجلة :

جاء القرآن يربى الإنسان خليفة الله فى الأرض ، يربيه قلبا وروحا ، ويربيه خلقا وسلوكا ، ويربيه جسدا وعقلا ، ويرتفع به إلى الأفق الأعلى أفق الإنسانية آخذا بيده حتى يجعله فى النهاية صورة حية من تصور القرآن للإنسان الكامل ويصنع منه طاقة كونية فعالة مهيمنة على

(١) الآيتان ٦٣ ، ٦٤ من سورة النحل

الكون ومسخرة له كما أراد خالقه . « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون »(١) وتخلق فيه قوة عزيزة أبيه لا تذل ولا تضعف ، ولا تجبن ، بل تواجه الأحداث فى إيمان وثقة من عون الله تعالى ، وتجاهد فى هذه القوة أعداء الله وأعداء دينه وأعداء البشرية كلها وهى مطمئنة إلى نصر الله « ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز »(٢) .

وقد سلك القرآن للتأثير فى النفوس وهدايتها إلى ما يحييها والأخذ بحجزاتها للأخذ عما يشقيها مسلكا خطابيا أخاذ اجتذابا قد ساير الحقائق جنبا لجنب ولم يهم فى أودية الخيال كما يهيم الشعراء وأكثر الخطباء ، بل كان فى بيانه الخلاب وعباراته العذبة مقررا للحقائق ، وداعمها بالآيات البينة والحجج الناطقة التى لا تقبل فى شرعة الأنصاف جدلا ولا مناقشة ولا حوارا ولا مراجعة ولذلك وصفه الله بقوله « هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان »(٣) .

ولقد تأثر به الجن ساعة سمعوه وامتلأت قلوبهم بمحبته وإجلاله حتى أسرعوا لدعوة قومهم إلى اتباعه فقالوا كما حكاه القرآن عنهم « إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا »(٤) .

فهو الأستاذ الكبير والمربى العظيم ذو الإرشاد الحميد والأثر المجيد ، قد حوى من الدلائل البينة ما يهدى إلى العقائد التى ترفع شأن الإنسان وتلائم كرامته ، وتحمله إلى سلوك طريق الخير طمعا فى ثواب الله ، وخوفا من عقابه ، فقد حارب الشرك وقوض دعائم الوثنية بأدلته الدامغة التى

(١) الآية ١٣ من سورة الجاثية .
(٢) الآية ٤٠ من سورة الحج (٣) الآية ١٨٥ من سورة البقرة .
(٤) الآيتان ١ ، ٢ من سورة الجن .

تثبت أن هذه العقيدة واضحة البطلان وأنه لا يصح أن يقيم عليها من له أدنى شك قال سبحانه وتعالى : « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب »(١) .

وقال سبحانه وتعالى : « واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا »(٢) إلى غير ذلك من الأدلة الكبيرة على فساد هذه العقيدة وبطلانها . وأقام البراهين الساطعة على وجود الإله ، ووحدانيته ، وكمال قدرته ، وبالغ حكمته ، وشمول علمه ، وقد لفت القرآن أنظار الناس إلى ما بين أيديهم من آثار القدرة الدالة على وجود خالق حكيم مدبر لهذا العالم فمن ذلك قوله تعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب »(٣) وقوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون »(٤) .

ومن أوضح البراهين على وجود الخالق هذه الآية الكريمة على إيجازها وهى قوله تعالى « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون »(٥) فإنه لا يعقل حصول أثر بلا مؤثر كما لا يعقل أن يكون الأثر عين المؤثر . ويقول

(١) الآية ٧٣ من سورة الحج .
(٢) الآية ٣ من سورة الفرقان .
(٣) الآية ١٩٠ من سورة آل عمران .
(٤) الآيتان ٢١ ، ٢٢ من سورة البقرة .
(٥) الآية ٣٥ من سورة الطور .

سبحانه وصدر إثبات الوحدانية : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون »(١) ويقول سبحانه « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون »(٢) إلى غير ذلك من الآيات الواردة فى هذا المعنى ...

والآيات الواردة فى تقرير كمالاته من قدرة وإرادة وعلم وعدل وحكمة وغير ذلك من كمالاته تعالى وهى كثيرة لا تحصى .

وقد بين القرآن أنه لابد من البعث والجزاء ، لابد من يوم يبعث فيه الناس وينشرون ويحاسبون على ما قدموا فى الدنيا فيجازى المؤمن بنعيم الجنة ويعاقب الكافر بجحيم جهنم الخالد ، ولما أنكر الكفار عقيدة البعث واحتجوا بما حكاه القرآن عنهم قال تعالى « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون أوآباؤنا الأولون »(٣) .

وقال تعالى : « أئذا كنا عظاماً ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديداً »(٤) وقال تعالى : « أئذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد »(٥) .

جاء فى الرد عليهم وإبطال شبهتهم آيات كثيرة : قال سبحانه : كما بدأنا

(١) الآية ٢٢ من سورة الأنبياء
(٢) الآية ٩١ من سورة المؤمنون .
(٣) الآيتان ١٥ ، ١٦ من سورة الصافات .
(٤) الآية ٤٩ من سورة الإسراء
(٥) الآية ٣ من سورة ق .

أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين »(١) وقال سبحانه : «وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »(٢) إلى غير ذلك من الآيات الوارده فى هذا المقام .

كما أتى هذا الكتاب الكريم فى معاملات الناس بالمنهج القويم الذى لو ساروا عليه فى حياتهم لعاشوا أقوياء سعداء متمتعين بخيرات الحياة الدنيا بعيدين عن شقائها وشرورها ، ذلك أن فيه مع بيانه الثابت عن الرسول ﷺ من النظم والقوانين ما شمل كل ناحية من نواحى الحياه على كثرتها واتساعها ، ففيه التشريعات الاقتصادية التى تحث على كسب المال وصيانته من التلف والضياع يقول الله سبحانه وتعالى فى الحث على كسب المال «هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »(٣) ويقول : «فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »(٤) .

ويقول فى الحث على صيانة المال «ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما وارزقوهم فيها واكسوهم وقولوا لهم قولا معروفا»(٥) ومنع من تسليم اليتامى أموالهم إلا إذ كبروا وانتقلوا من حالة الطفولة إلى حالة الرجولة وكانوا مع ذلك عقلاء راشدين ، لا سفهاء مبذرين . يقول الله تعالى : «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم(٦) .

---

(١) الآية ١٠٤ من سورة الأنبياء (٢) الآية ٧ من سوره الروم

(٣) الآية ١٥ من سوره الملك .

(٤) الآية ١٠ من سوره الجمعة .

(٥) الآية ٥ من سورة النساء (٦) الآية ٦ من سوره النساء

وحث على الاعتدال فى الإنفاق فقال : «ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا »(١) . وذم المبذرين أبلغ ذم فقال: «إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا»(٢).

وفيه التشريعات الاجتماعية التى تجعل الأمة تتعاطف وتتراحم حتى تكون كالأسره الواحده .

يقول الله تعالى : «واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا »(٣) .

فقد أمر فى هذه الآية بالإحسان إلى الوالدين وسائر الأقارب وإلى اليتامى والمساكين والجيران القريب منهم والبعيد والصاحب بالجنب الذى هو الزوجة . أو من تكثر ملازمته للانسان لأى سبب من الأسباب ، والغرباء وما دخل تحت الملك من إنسان وحيوان .

وحث على العفو والتسامح فقال : «وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين »(٤) .

«ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم »(٥) .

ونهى عن الخصال السيئة التى تنفر الناس بعضهم من بعض فقال :

---

(١) الآية ٢٩ من سوره الإسراء .

(٢) الآية ٢٧ « « « .

(٣) الآية ٣٦ « النساء .

(٤) « ٤٠ « الشورى .

(٥) « ٣٤ « فصلت .

«يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون»

«يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه، واتقوا الله إن الله تواب رحيم».

ودعا إلى الاحسان إلى غير المسلمين ما داموا مسالمين فقال سبحانه: «لاينهاكم عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين»(١).

نبه الناس إلى أنهم راجعون إلى أصل واحد حتى لا يطغى بعضهم على بعض ولا يستهين بعضهم ببعض فقال سبحانه: «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحده وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء»(٣).

وقال: «يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير»(٤).

وصان القرآن للبيوت حرمتها وقدسيتها فحظر على كل واحد أن يدخل بيوت غيره إلا بإذنه فقال سبحانه «يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم

---

(١) الآيات ١١، ١٢ من سورة الحجرات.
(٢) الآية ٨ من سوره الممتحنة.
(٣) الآية ١ من سوره النساء.
(٤) الآية ١٣ من سوره الحجرات.

حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون»(١) وأمر الرجال والنساء عند التلاقى بغض الأبصار سدا لباب الفتنة، وإبعادا عن مظنة الشبهة فقال سبحانه: «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها»(٢) الآية.

وقيد من الأحكام ما يحقق مصالح الناس ويصون حقوقهم ويدفع الأذى عنهم ويقيم العلاقات فيما بينهم على أساس العدل والحق والخير فمن ذلك أنه حرم أكل أموال الناس بالباطل بوجه ما من الوجوه فقال سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل»(٣).

ولما كان لرشوة الحكام أخطار جسيمة جاء فى شأنها نهى خاص وذلك فى قوله تعالى «ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون»(٤).

وحرم الربا قليله وكثيره وقرن تحريمه بالوعيد الشديد لما فيه من ضرر بالغ بالفقير فقال سبحانه: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون»(٥).

---

(١) الآية ٢٧ من سورة النور.
(٢) الآيتان ٣٠، ٣١ من سورة النور.
(٣) الآية ٢٩ من سورة النساء.
(٤) الآية ١٨٨ من سورة البقرة.
(٥) الآيتان ٢٧٨، ٢٧٩ من سورة البقرة.

كما وضع القرآن نظاما دقيقا للمداينة يحفظ لصاحب الدين حقه ويحمى المدين من كل ضرر يقع عليه .

كما حث على الصدقة ورغب فيها ووعد بالثواب الجزيل عليها قال سبحانه : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون »(١) .

وأوجب على المسلمين إذا قامت الفتنة بين طائفتين منهم أن يصلحوا بينهما وأن يردوا الباغية عن بغيها بالقوة إذا لم تجد معها النصيحة قال تعالى: « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين »(٢) .

وقد جعل الإصلاح بوجه عام فريضة على المسلمين حيث قال سبحانه « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون »(٣).

وحرم الظلم حتى مع الخصوم وتوعد عليه ، وفى صيانة الحقوق أيا كانت أمر أن تؤدى الشهادة بالحق ولو كان فيها ضرر على نفس الشاهد أو أقرب الناس إليه قال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا »(٤) .

(١) الآيه ١٤٥ من سورة البقرة .
(٢) الآية ٩ من سورة الحجرات .
(٣) الآية ١٠ من سورة الحجرات .
(٤) الآية ١٣٥ من سورة النساء .

ولقد جاء القرآن بالتشريعات الجنائية التى تطهر المجتمع من الجرائم والشرور ، وتحمى النفوس والأعراض والأموال من العبث بها ، والتعدى عليها فشرع القصاص فى جريمة القتل بقوله « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم »(١) وبين ثمرة القصاص فقال: « ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تتقون »(٢) .

وقضى على قطاع الطرق الذين يعبثون بالأمن ويخيفون السبيل وينتهبون أموال الناس ، بعقوبات رادعة تلائم جريمتهم المنكرة فقال سبحانه : « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »(٣) .

وقضى كذلك بعقوبات رادعة للسارق الذى يباغت الناس فى منازلهم ومواطن أمنهم فيأخذ من أموالهم فى لحظة واحدة ماعسى أن يكونوا جمعوه بكدهم فى شهور أو سنين، وتلك العقوبة هى ماورد فى آية السرقة من قطع السارق والسارقة فقال سبحانه :« والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم »(٤) .

وعنى القرآن بوضع عقوبة لجريمة الزنا التى تلوث الأعراض وتقضى

(١) الآية ١٧٨ من سوره البقرة .
(٢) الآية ١٧٩ من سوره البقره .
(٣) الآية ٣٣ من سوره المائده .
(٤) الآية ٣٨ من سوره المائده .

على شرف البيوت وينتقل عارها إلى الذرية ، وهذه العقوبة هى جلد من زنى مائة جلده قال تعالى فى تقرير هذه العقوبة « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلده ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين »(١) .

وقد بينت السنة أن ماورد فى القرآن هو جزاء البكر ، وأن المحصن والمحصنة جزاؤهم الرجم حتى يموت .

وكذلك عنى القرآن بوضع عقوبة لمن رمى غيره بأنه ارتكب هذه الجريمة فيسىء بذلك إلى سمعته ويلوث شرفه ويؤذى كرامته وكرامة ذوى قرباه وتلك العقوبة هى أن يجلد ثمانين جلده وأن ترد شهادته يقول القرآن فى شأن هذه العقوبه « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلده ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون »(٢) .

هذه هى العقوبة الرادعة التى وضعها القرآن لتلك الجرائم الفتاكة ، وهى عقوبات لو اعتصمت بها أمة من الأمم لحمتها من غوائل الشر والفساد ، ولكانت للنفوس والأعراض والأموال أقوى حافظ وأمنع سياج .

وجاء القرآن أيضا بالتشريعات الحربية التى تحث أبلغ الحث على الاستعداد للأعداء وتربى الأمة على الشجاعة الكامله وتنقذها من الخضوع والاستسلام لأعدائها وتبشر من قتل وهو يحارب دفاعا عن دينه ووطنه بأعلى المنازل عند الله تعالى .

فجاء فى وجوب إعداد العدة لمقاومة الأعداء والثبات فى قتالهم إذا نشبت

(١) الآية ٢ من سوره النور .
(٢) الآية ٤ من سوره النور .

الحرب بيننا وبينهم آيات كثيرة قال تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون »(١) وقال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ومن يولهم يومئذ دبره إلا منحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير »(٢) وقال سبحانه : « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما »(٣) وقال سبحانه : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »(٤) ويقول القرآن فى بيان منزلة من يقتل فى سبيل الله « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون »(٥) .

وجاء القرآن بتشريعات أخرى صالحة فى ضروب أخرى من شئون الحياة كالنكاح والطلاق والميراث ، والحياه الزوجية والأطعمة والأشربة إلى غير ذلك .

والأصول العامة التى قررها القرآن ودعا إليها بقوه وربط بها الثواب والرضا منه تعالى والحياه الطيبه فى الدنيا والآخره هى الأمر بالمعروف

(١) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .
(٢) الآية ١٥ ، ١٦ من سوره الأنفال .
(٣) الآية ١٠٤ من سوره النساء .
(٤) الآية ١٤٢ من سوره آل عمران .
(٥) الآيتان ١٦٩ ، ١٧٠ من سوره آل عمران .

والنهى عن المنكر ، وبذل الوسع فى كل خير واجتناب كل شر قال سبحانه «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »(١) وقال سبحانه : «فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »(٢) .

وما عنى القرآن به تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، فأوجب على الحاكم أن يكون عدلا فى حكمه فلايحكم فى أمر من الأمور بهواه ، بل يتقيد فى كل شىء بما شرع إليه ، ولا ينحرف فى حكمه عنه ، ولا يأتى بما يخالفه ويتعارض معه ، وواجب على المحكوم أن يكون مطيعا للحاكم مذعنا له مادام معتصما فى حكمه بكتاب الله وسنة نبيه ، وهذه هى النصوص القرآنية التى تحدد علاقة الحاكم بالمحكوم قال سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا»(٣) وقال سبحانه : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا »(٤) إلى غير ذلك من الآيات الوارده فى هذا الموضوع .

وقد عنى القرآن أيضا بإيقاظ العقول وحملها على التأمل والتفكير قال سبحانه : أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون »(٥)

---

(١) الآية ١٠٤ من سوره آل عمران .

(٢) الآيتان ٧ ، ٨ من سوره الزلزلة .

(٣) الآية ٥٩ من سوره النساء .

(٤) الآية ٣٦ من سوره الأحزاب .

(٥) الآية ١٨٥ من سوره الأعراف .

وقال سبحانه : «وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون »(١)

وقال سبحانه : «أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت »(٢) .

ونعى على الذين لاينظرون فيما حولهم من بدائع صنعه تعالى ، وآيات قدرته ، ودلائل علمه وحكمته تعالى سبحانه : «وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لوكان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولايهتدون »(٣) .

وحث على الاعتبار بما حل بالمعاندين الذين لا يصغون لصوت الحق ولايذعنون لأدلة العقل فقال سبحانه : «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »(٤) .

وقال سبحانه : «أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا فى الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق »(٥) .

ونبه على أن الدعاوى لايكون لها وزن ولا اعتبار فقال المعاندين الذين يدعون الباطل ويتمسكون به فقال سبحانه : «قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون »(٦) . وقال

---

(١) الآيتان ٢٠، ٢١ من سورة الذاريات .

(٢) الآيات ١٧، ١٨، ١٩ من سورة الغاشية .

(٣) الآية ١٧٠ من سورة البقره .

(٤) الآية ١٢٧ من سورة آل عمران .

(٥) الآية ٣١ من سورة غافر .

(٦) الآية ١٤٨ من سورة الأنعام .

سبحانه : «قل أرأيتم ماتدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات أئتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين »(١) .

وحكى عن اليهود والنصارى أنهم قالوا لن يدخل الجنة إلا من كان منا ثم عقب على دعوى الفريقين بقوله « تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » (٢) . إلى غير ذلك من الآيات الواردة فى هذا المقام.

وقد وجه القرآن العقول إلى الانتفاع علما وعملا بما أن أبدعه الله من الكائنات حيث يقول « هو الذى خلق لكم مافى الأرض جميعاً » أى خلق لأجل أن تنتفعوا به فى كل ما استطعتم أن تصلوا إليه من وجوة النفع، ومن الواضح أنه لاسبيل إلى الانتفاع بما أبدعته القدرة الآلهية إلا بعد التفكير والوصول إلى ما أودع فيـــه من القوى والأسرار ، فهذه العبارة تدفعنا دفعا قوياً إلى التأمل والنظر إلى كل ماحوته الأرض على عظمها ، وسعة أرجائها لافرق فى ذلك بين ماهو ظاهر فوقها وما هو مستقر فى جوفها من الكنوز الكثيرة المتفرعة ، وتحضنا هذه العبارة حضا بليغا على الانتفاع بنتائج تفكيرنا فيما يحيط بنا من بدائع صنع الله فى البر والبحر، وبين طبقات الأرض .

فإذا لم نعمل بما توحى به هذه العبارة الكريمة من إعمال النظر فى والفكر فى الكائنات التى خلقها الله ، والانتفاع بما يؤدى إليه النظر من الصناعات والاختراعات التى تقوم عليها حضارة الأمم ، ويرتبط بها رقيها

(١) الآية ٤ من سورة الأحقاف .
(٢) الآية ١١٩ من سوره البقره .

وتقدمها ، إذا لم نعمل كنا مقصرين فى حق أنفسنا ، ومهملين لما يحثنا عليه القرآن الكريم .

وقد سلك القرآن فى تربية الأمة دينياً وخلقيا واجتماعيا مسلكا تدريجياً ، لأن دراسة طبائع الشعوب تدلنا على أن الطفرة فى حياة الأمم محالة، وأن محاولة تحويل أية أمة تحويلا فجائيا عن المبادىء الأساسية التى صارت عبر الزمان من عناصر حياتها إنما هى محاولة فاشلة تقضى عليها بالخذلان ، وأن استقرار المبادىء الجديدة فى مشاعر الأمة لايكون إلا بعد مضى زمن كاف لاحدثاث المبادىء القديمة ، وغرس بذور المبادىء الجديدة فى محلها ، ومن غفل من زعماء الأصلاح عن تلك الحقائق التى تؤيدها شواهد التاريخ فلابد أن يكون نصيبه الفشل فيما يقوم به من دعاية الإصلاح تلك سنة الله فى الأمم « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

فلو أن القرآن نزل جملة واحدة على رسول الله ﷺ بتلك التعاليم التى هدمت صروح معتقدات العرب الباطـــلة ، وتوخت مبادئهم الخلقية والاجتماعية .

وقام الرسول ﷺ يحاول أن يحولهم طفره عما كانوا فيه من فساد إلى ماجاءهم به القرآن من مبادىء الاصلاح لكان من ذلك رد فعل شديد يأتى بعكس النتيجة المطلوبة من إزاله ، ولما كان استعداد الأمة يهيئها لقبول تعاليمه الحكيمه ، فكان من حكمة الله الذى يعلم طبائع الشعرب أن يأخذهم لسياسة التهذيب التدريجى ليكون تحويلهم عما كانوا عليه أشبه مايكون بالسنة الطبيعيه فى تدريج الكائنات الحية ، فأنزل الله إليهم القرآن تدريجيا بحسب المناسبات ووجه استعدادهم لقبوله ، وإعطائهم من دوائه الناجع

(١) الآيه ٢٩ من سوره البقره .

جرعات يستطبون بها من الفساد والرذيلة ، ليستل من قرارة نفوسهم جذورها ، ويغرس فى مكانها بذور الهداية ، وعلى هذه السنة الحكيمة فى سياسة التربية التدريجية كانت التكاليف الإسلامية ، فنجد أن الإسلام كلف الناس أولا بالإيمان بالله تعالى ، ولفت أنظارهم إلى مانصبه إليه فى كونه من الأدلة على كال قدرته وتمام حكمته .

ثم نعى عليهم عبادتهم لهذه الأصنام التى كانوا ينحتونها بأيديهم ثم يعبدونها من دون الله وبين لهم أن هذه الأصنام لاتنفع ولاتضر ولاتغنى عنهم من الله شيئاً ، ثم أقام لهم الأدلة القاطعة على أن هناك يوما آخر يجزى فيه كل امرىء على ماقدم من خير أو شر ، حتى إذا أطمأنت نفوسهم إلى عقيده الفطره الصحيحة وهى التوحيد الخالص من شوائب الشرك ، واتصلت قلوبهم بخالق الكون الأعظم صاحب السلطة الغيبية العليا ، وخالق الأسباب والمسبباب ، وواضع السنن والنواميس الكونية ، وأصبحت لاتذعن بالعبودية إلاله ، ولاتعرف الاستكانة والخضوع إلا لعظمته ، ولا تستعين فى قضاء مآربها إلا به ، انتقلا بهم إلا العبادات فبدأ بأهمها ، ففرض عليهم الصلاه قبل الهجرة ثم ثنى بالزكاة وبالصوم فى السنة الثانية من الهجرة ثم ثلث بالحج فى السنة السادسة منها .

وكذلك كان الشأن فى المحظورات لم يحرمها عليهم دفعة واحده بل حظرها عليهم تدريجياً .

ولهذا كله أدلته من نصوص القرآن الكريم إذا تتبعنا مكيه ومدنية وقواعده التشريعية .

وأوضح مثال لذلك التدريج فى التشريع تحريم الخمر فقد نزل قوله تعالى « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون » (١) .

(١) الآية ٦٧ من سورة النحل .

فى مقام الامتنان بنعمه سبحانه وإذا كان المراد بالسكر مايسكر من الخمر ، وبالرزق مايؤكل من هاتين الشجرتين كالتمر والزبيب ـ وهذا ماعليه جمهور المفسرين ـ فإن وصف الرزق بأنه حسن دون وصف السكر يشعر بمدح الرزق والثناء عليه وحده دون السكر توطئة لتحريمه مستقبلا ، ثم نزل قوله تعالى . « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما »(١) .

فقارنت الآية بين منافع الخمر فيما يصدر عن شربها من طرب ونشوة أوحمرة للخد التى توهم الصحة ، أو يترتب على الاتجار بها من ربح ، ومضارها فى إثم تعاطيها ومايشأ عنه من ضر فى الجسم ، وفساد فى العقل وضياع للمال ، وإثارة لبواعث الفجور والعصيان ، وفى هذه الآية ترجيح المضار على المنافع فتلك علة كافية لتحريمها ، فشربها قوم وتركها آخرون .

ثم إن بعض المسلمين صنع طعاما ، ودعا أصحابه فأكلوا وشربوا ثم قام أحدهم ليصلى بهم ، فقرأ « قل ياأيها الكافرون أعبدوا ماتعبدون » فأنزل الله سبحانه وتعالى : « ياأيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاه وأنتم سكارى حتى تعلموا ماتقولون »(٢) فاقتضى هذا الامتناع عن شرب الخمر فى الأوقات التى يستمر تأثيرها إلى وقت الصلاة ، حيث جاء النهى عن قربان الصلاه فى حال السكر حتى يزول عنهم أثره ويعلموا مايقولون فى صلاتهم .

وبذلك ... صار من السهل تحريما باتاً قاطعاً فقد صنع بعض المسلمين طعاماً فأكلوا وشربوا حتى لعبت الخمر برءوسهم فتناولوا الأشعار فتشاجروا حتى شج أحدهم رأس الآخر ، فقال الفاروق عمر : « اللهم بين

(١) من الآية ٢١٩ من سورة البقرة .

(٢) من الآية ٤٣ من سوره النساء .

لنا فى الخمر بيانا شافيا لحرمها الله عليهم تحريماً باتآ بقوله : « يأأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون »(١) فقال سيدنا عمر رضى الله عنه انتهينا (٢) .

وهكذا فما ترك القرآن خيرا يعود على المرء بصحه فى جسمه أو رقى فى عقله ، أو كمال فى خلقه ، أو هداية فى نفسه إلا بينه وحث عليه بضروب من الترغيب مختلفة ، وماترك شرآ يفسد بنيه الجسم أو يضر بالعقل أو يوهن الخلق ، أو يذل النفس ويضلها إلا حذر منه ونفروأ عد عليه ورهب ، فقد أمر بالكثير وحذر عن الكبير ،

فالقرآن كتاب لايستطيع عزله عن الحياة أبدا وهل نزل إلا ليخطىء أو يصوب من أفكارها ، وإلا ليمحو أويثبت من أحوالها ، إنه كتاب الحياة المفعمة بالحركة المتجددة على الدهر ، ولكنها الحياة القائمة على الحق ، الدارجة على الصراط المستقيم

إن القرآن هداية الله للحياة كلها ، ولقد تكلم منذ عشرين قرناً ، وكأنما يخاطب الناس أبناء هذا القرن ، وسيظل غضاً طريا جديدا مها تقادمت العصور الدهور .

فكان كل مسلم من جيل القرآن الأول ـ جيل الصحابة ـ رضوان الله عليهم

---

(١) الآيتان ٩٠،٩١ من سورة المائدة .

(٢) انظر تفسير المنار ج٢ ص ٢١٩ ، ج٧ ص٤٩ الحكمة فى تحريم الخمر على مراحل وانظر تفاسير الكشاف وابن كثير والقرطبي والألوسي فى آيات الخمر .

يشعر أن عين الله عليه ، وأن سمع الله عليه ، وأن كل كلمة منه ، وكل حركة بل كل خاطر وكل نية قد تصبح مكشوفه للناس يتنزل فى شأنها قرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان كل مسلم من الجيل الأول إذا أضربه أمر أو واجهته معضلة انتظر أن تفتح أبواب السماء غدا أو بعد غد لينزل منها حل لمعضلته ، وفتوى فى أمره ، وقضاء فى شأنه .

أورد الإمام الترمذى بسنده عن معقل بن يسار رضى الله عنهما أنه زوج أخته رجلا من المسلمين على عهد رسول الله ﷺ فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها ، فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقال أكرمتك وزوجتكها فطلقتها ، والله لاترجع إليك أبداً قال فعلم الله سبحانه وتعالى حاجته إليها وحاجتها إليه (إلى بعلها) فأنزل الله تعالى « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزاجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لاتعلمون »(١)

فسمع ذلك معقل بن يسار فقال سمعا لربى وطاعة فدعا زوجها فقال أزوجك وأكرمك فزوجها إياه »(٢).

بماذا يفسر هذا العمل وعلى أى شىء يدل ؟ يدل على الاستجابة الفورية لأمر الله سبحانه وتعالى ، والرجوع عن هوى النفس إلى حكم الله ، والطاعة الكاملة له بلا تراخ أو فتور .

« وكانت المرأة فى الجاهلية تمر بين الرجال كاشفة صدرها لايواريه

---

(١) الآية ٢٣٢ من سورة البقرة

(٢) الدر المنثور ج١ ص ١٨٧

شئ ربما أظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطه أذنيها .(١) .

كانت المرأة تفعل ذلك لأن قانون الجماعة لا يحرمه ، وعرف البيئة لا يحرمه حتى جاء أمر الله سبحانه وتعالى وأنزل توجيهه لتربية الأمة الاسلامية .

قال تعالى « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن »(٢) الآية.

نزلت هذه الآية فامتثلن لتوجيه الله وهديه ولم تمتنع منهن واحدة عن الخضوع لأمر الله سبحانه وتعالى .

عن صفية بنت شيبة أنها قالت : « بينما نحن عند عائشة رضى الله عنها قالت فذكرن نساء قريش وفضلهن فقالت عائشة : إن لنساء قريش فضلا وإنى والله مارأيت أفضل من نساء الأنصار أشد تصديقاً لكتاب الله وإيمانا بالتنزيل ، لما نزلت فى سورة النور « وليضربن بخمورهن على جيوبهن » أنقلب رجالهم إليهن يتلون عليهن ما أنزل الله إليهن فيها ، ويتلو الرجل على امرأته وابنته واخته ، وعلى كل ذى قرابته ، فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل - كساء من الصوف - فاعتجرت(٣) به تصديقا وإيمانا بما أنزل الله من كتابه فأصبحن وراء رسول الله ﷺ

---

(١) ابن كثير جـ ٣ ص ٢٨٤ .

يقول الزمخشرى فى تفسيره « كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وماحولها) الكشاف جـ ٢ ص ٩٠

(٢) الآية ٣١ من سورة النور .

(٣) أى جعلته معجرا وهو الخمار يلبس على الرأس ،

معتجرات كأن على رءوسهن الغربان »(١) .

لقد كانت كلمات القرآن بالنسبة لهم المنهج اليومى الذى يتلقاه المسلمون ليعملوا به فورا لا يتخلف أحد ، ولا يتباطأ إنسان ، بل يتسابقون إلى ذلك ويتلقونه كما يتلقى الجندى فى ميدانه أمر القائد ، فيعيه ويفهمه ويقوم مبادرا إلى التنفيذ .

قال أنس بن مالك رضى الله عنه بينما أدير الكأس على أبى طلحة وأبى عبيدة بن الجراح وأبى دجانة ومعاذ بن جبل وسهل بن بيضاء حتى مالت رءوسهم من الخمر إذ سمعت مناديا ينادى « إلا إن الخمر قد حرمت »(٢) قال فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب وكسرنا القلال وتوضأ بعضنا واغتسل بعضنا وأصبنا من طيب أم سلمة ثم خرجنا إلى المسجد .

وعن أبى بريده عن أبيه قال بينما نحن قعود على شراب لنا ونحن نشرب الخمر إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وقد نزل تحريم الخمر فجئت أصحابى فقرأت الآية عليهم إلى قوله : « فهل أنتم منتهون ، قال وبعض القوم شربته فى يده شرب بعضها ، وبقى بعضه فى الإناء فأراقوا ما فى كئوسهم ثم صبوا ما فى باطنهم ، وقالوا انتهينا ربنا انتهينا ربنا »(٣) .

وكان يستهدف من وراء ذلك إيجاد اليقظه الدائمة ، والصحوة المستمرة لهذا الجيل حتى يستطيع أن يؤدى تكاليف الخلافة التى كلفه الله بها ، يؤدى تكاليفها تجاه نفسه ، ويؤدى ما عليه تجاه الجماعة التى يعيش معها ، ويؤدى

---

(١) رواه أبو داود وراجع تفسير سورة النور للأستاذ أبى على المودودى

(٢) رواه الإمام أحمد وأخرجه فى الصحيحين من غير وجه عن أنس وذكره ابن كثير فى تفسيره جـ ٢ ص ٩٣ .

(٣) انظر صحيح البخارى جـ ٦ ص ٦٧ ابن كثير جـ ٢ ص ٩٥ .

ما فرض عليه ربه من فروض ، وواجبات ولن يتم ذلك بالكامل ولن يستطيعه وهو نائم نصف يقظ أو نصف مخمور .

أستجاب المسلمون لأمر ربهم بمجرد سماع الآيات فى هذا الصدد، ولم يحتج الأمر إلى إصدار قانون أو عدة قوانين أو غير ذلك إلا لأن المنهج الربانى أخذ النفس الإنسانيه بطريقته الخاصة ، أخذها بسلطان الله وخشيته ومراقبته ، وبحضور الله سبحانه فيها حضورا لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان ، وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة .

استجاب المسلمون لأمر ربهم فى تحريم الخمر ، واستجابوا له فى الامتناع عما نهاهم عنه ، وأصاخوا له فى تكريم المرأة والرفق بها ، والتسليم فى إعطائها حقوقها كاملة ، وبذلوا أرواحهم رخيصة فى سبيل الله ، واعتبروا انه كل ما فى أيديهم من مال أو عقار ، هو عارية مردودة . وأن المال مال الله ، وأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ؛ فكانوا يتسابقون فى كل أمر أمره القرآن .

وهكذا تم ميلاد جديد لمجتمع جديد له عقيدة جديدة ، ونظام للحياة جديدة ، العبودية لله وحده ، والتجمع على أساس العقيدة ، والتحكيم لمنهج الله وشرعه ، ولأول مره فى تاريخ البشرية وجد الانسان العالمى ، الانسان الذى يعمل لخير البشرية كلها ، أسودها وأبيضها ، الانسان الذى تمذهب بمذهب القرآن واتخذه سلوكا ومنهجا ، وارتضاه قدوة وإماما ، الانسان الذى آمن أن الناس كلهم خلق الله ، فهم أخوة فى الخليقة لن يفرقهم الجنس أو اللون ، ولن يتفاضلوا بالعصبية أو القبلية ، ولن يسود بعضهم بعرض زائل من مال أو عقار ، ولن يستعبد بعضهم بعضا لأى سبب من الأسباب ، والناس كلهم سواسية لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، الناس كلهم صائرون إلى الله فى النهاية فهم إخوة فى المصير ، والناس كلهم ينبغى لهم أن يعبدوا الله ويلتقوا فى حماه فهم إخوة فى الاتجاه .

لقد نجح منهج القرآن فى توجيه الناس إلى خالقهم ، وردهم إلى مولاهم ، وإشعارهم بأنه قريب فهم ، قريب منهم فى السر والجهر ، فى الفلاة والحقل فى الصحراء والجبل ، فى المسجد والمسكن، فى حال الصمت والكلام فى أثناء اليقظة والمنام ، فى حلول الليل وأدبار النهار قال سبحانه : « وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » هذه بعض آثار القرآن التى ظهرت فى العرب بالذات ظهورا واضحا لا خفاء فيه ثم انتقلت مع نور الاسلام أينما سار ، وتحلى بهذه الخلال وتأثر بهذه الخصال كل من استنار قلبه بذلك النور الإلهى .

وإن من يقرأ تاريخ المجتمع الانسانى قبل نزول القرآن وبعد نزوله يحكم حكما لا ريب فيه بأن القرآن له اليد الطولى فى إنقاذ البشرية من مخالب هلاك محقق ، وله اليد الطولى أيضا فى وضع الأسس القديمة التى تفتح للبشرية الباب إلى حياة فاضلة لا يعكر صفوها معكر ، ولم يجعل لأحد عليها سلطانا نصيرا .

وإن فى القرآن آية تكاد تكون تصويرا واضحا لهذا المعنى ، وبيانا شافيا لحال المجتمع الانسانى قبل نزول القرآن وبعده إذ تقول : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون »(1) أى « ميتا » بالكفر « فأحييناه » بالايمان « وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس » وهو القرآن ، « كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » — لا — لا يستويان يؤيد هذا ما جاء فى بيان مهمة القرآن فى العالم من قول الله « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدى به الله من أتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من

(1) الآية ١٢٢ من سورة الأنعام.

الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم»(١).

ذلك هو القرآن الكريم الذى أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ آخر الأنبياء وخاتم المرسلين والذى تمسك بكل تعاليمه سلفنا الصالح، وساروا على ما رسمه لهم من منهج قويم، فعزوا وسادوا بين العالم أجمع، وهم يشرقون بشمس الأمن والسلام والأمان على أرجاء الدنيا كلها تحت ظل راية القرآن.

ونحن اليوم فى أمس الحاجة إلى القرآن لتعود إلى المسلمين عزتهم وقوتهم وكرامتهم، ومنابع المحبة بينهم، فيصبح المسلمون كرجل واحد وعلى قلب رجل واحد، معصومين بحبل الله جلت قدرته فيرهبهم الطامعون فيهم، وينتصرون على أعدائهم، ويعود للدين مجده وعزته وقوته والله الهادى إلى سواء السبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ؟

---

(١) الآية ١٥، ١٦ من سوره المائده.